حضارة؟!..

في مدينتنا مجموعة هائلة من المتناقضات، ففيها الثقافة والسخافة، والتسلية، والتأسية، والرحمة والنقمة. غير أن وسائل الضرر، تغلب في عصرنا على أسباب العطف والبر.

هل حرّمت المدنية الاتجار بالعبيد السود، وسكتت عن المتاجرة بالرقيق الأبيض؟ وهل منعت القوانين سرقة القرش الواحد، وأعرضت عن المحتكرين والمضاربين سارقي الألوف والملايين؟

هل أوجدت المدنية الكهرباء لتحرق بها المدن الآمنة؟ وهل بنت أيدي المتمدنين الطائرة لتنقضّ على المطمئنين من عباد الله؟ وهل بلغت الكيمياء شأوها البعيد الشاسع لتهدد البشرية بنشر الجراثيم الفاتكة، والغازات السامة المهلكة؟

هل تجيز حضارتنا هذه الأمور المضرة، أم تتهاون فيها وتتغاضى عن ذنوبها؟

أجل، إن الحضارة الحالية، لتتراخى كثيراً في هذه الشؤون وأمثالها، كما تتراخى في تأدية رسالة التربية الصحيحة. ولقد حمل إلينا التمدن الحديث، سلسلة طويلة من المخازي، التي لم تكن لتعرفها بيئتنا الشرقية، المفطورة على النجدة والشرف، فغدونا نرى أسراب العذارى يتهادين حول فوهة بركان الحرية الموبوءة وعذرهن أن الحضارة أجازت لهن التمادي في السهر والغزل والتدخين والشراب.

وعندي، أن الحضارة التي تجيز للعذراء اليافعة، أن تدخن لفائف التبغ، أو تعاقر كؤوس الخمر، أو ترود قاعات اللو المتطرف، لحضارة خرقاء، تقودنا الى خرائب التعاسة.

الحضارة التي تسوغ للأمهات، أن يتركن أطفالهن بين أيدي الخادمات الملوّنات، ويقصدن منتديات القمار في الليل أو في النهار، لحضارة، ماجئة تفكك روابط الأسرة وتطعن قدسية الواجب وتعمل لاضعاف الوطن والمجتمع معاً.

وفي بيئتنا كثيرون عبدوا تمثال الحضارة، كما عبد قدماء العبرانيين، العجل الذهبي، واندفعوا وراء أهواء الحضارة، اندفاع النعاج والحملان وراء كلب الراعي، فضاعوا في حقول تحوم عليها سحب الزخرفة الباطلة، وينبت في أطرافها عليق الفساد المموّه.

في بيئتنا أشباح تتعانق في زوايا المراقص، وتتقلب في أحضان الغواني، وتتألب على مقاصف العبث، وتنطرح على أقدام الخوابي، وتنسى الوجود على موائد الميسر.

في بيئتنا شباب يستقبلون الصباح بعيون أتعبها النظر، وجفون كسرها السهر، وجباه جعدها التفكير، وأيد سرت في مفاصلها رجفة الشيخوخة.

د. جهاد نعمان